الحكم الأدبي

بقلم السيد محمد توفل

لا تختلف الآراء وتتشعب المذاهب اختلافها وتشعبها في الآثار الأدبية ، فهذا يرضى عن قطعة أدبية يضيق بها الآخر ، وذاك يعجب بمعاني قصيدة يراها غيره مبذولة . . . ومن العسير أن ترجع بمخالفك في مسألة فنية عن رأيه ما دام يستطيع إلى الدفاع عنه سبيلاً . ولا عاب في هذا ، إنما العاب في ألا يخلص الناقد للحقيقة في بحثه ، ويندفع مع الهوى في رأيه

وليس من شك في أن للوهم أثراً بيناً في الأحكام الأدبية ، فالكاتب الذي يرفعه الجد إلى مرتبة الشهرة يستجيد جل الناس ما يصدر عنه ، إن جيداً وإن رديئاً ، ولا يكادون يستمعون لاعتراض معترض عليه أو لنقد ناقديه ، بينما المغمور يلاقي من عنت الناس وإرهاقهم الشيء الكثير . بل ندر أن يخرج الأديب من غمرة المجتمع ويحتل مرقباً بارزاً فيه بغير يد مشهور يقدمه إلى الجمهور بصوته المسموع ، بعد أن ينثر عليه درر المدح ويكسوه حلل التقريظ .. ومن أوضح الأمثلة لهذا ما لقيه الكاتب الكبير جولدسمث ، فقد ذاق البؤس أعواماً مكث فيها يعرض آثاره الأدبية القيمة والناس يعرضون عنها حتى ألف قصته التمثيلية البارعة « تمسكنت فتمكنت She Stoops to Conquer » وصار يقدمها إلى مديري المسارح وهم يرفضونها إلى أن أيده الله بزعيم الأدب في عصره الدكتور جونسون ، ففرضها عرضاً جيلاً وأثنى عليها بالذي هي أهله ، فكان تمثيلها وإعجاب الجمهور بها واستمرار عرضها أياماً عدة ، وبدأ ظهور نجم جولدسمث ، وكان هذا رداً قوياً على بعض مشاهير الكتاب السكسونيين الذاهبين إلى أن الإنسان سيد نفسه وليس للمقادير تحكم فيه . . .

ولعل إمام البيان الجاحظ كان يرى هذا الرأي حينما نصح لمن يريد مزاولة الأدب أن يعرض ثمرة عقله على العلماء « في عرض رسائل أو أشعار أو خطب » لمشاهير أهل البيان ، فإن رأى الأسماع تصغي له والعيون تحدج إليه ، علم أنه ذو موهبة أدبية واستمر في سبيل الأدب وإلا انصرف عنه إلى غيره مما ترتاح له طبيعته ، ولا تشق عليه مزاولته . نعم كان الجاحظ يرى أن للوهم تأثيراً في الحكم الأدبي ، وإن لم يوفق إلى طريقة سديدة يختبر بها الناشئ في الأدب نفسه ، فإن الوهم الذي يصرف العلماء عن الحكم له لخموله هو بعينه الذي سيصرفهم عن الحكم على غيره لشهرته ، وكان الأولى أن يرشده الجاحظ إلى هذا الناقد الذي يتجرد من المحاباة وينظر إلى ما يقال لا إلى من يقول ، ولا يحكم سوى عقله الصائب وخبرته الأدبية

ولكن الجاحظ الذي أخفق في هذا الوضع — وما أقل ما يخفق ! — كان يدلنا على هذا الناقد الذي يصح أن يعتمد عليه ، ويركن في الأحكام الأدبية إليه ، حينما تعرض لشرح موقف الجمهور في المفاضلة بين بليغين(1) فذكر أن الناس في هذا ثلاثة رجال : رجل يعطي كلامهما من التعظيم والتبجيل على قدر ما لهما في نفسه وموقعهما من قلبه ، ورجل يتهم نفسه فيسرف في اتهام من يعظمه خشية أن تكون منزلته عنده قد خدعته في أمره ، فالأول يزيد في حقه لما له في نفسه ، والآخر ينقصه من حقه لتهمته لنفسه . أما الذي في استطاعته أن يقدر المعاني حق قدرها ويعطي للأشياء قيمتها الحقيقية فهو العالم الحكيم المعتدل المزاج القوي

(1) ج ١ ص ٧٦ — البيان والتبيين

قلت : « وهل كان من الضروري أن تجيء عربي وحلواه ؟ »

قال : لم أجيء بها . وهذا هو اللغز الذي يحيرني . »

قلت : « فمن أين جاءت إذن ؟ الوكيل طبعاً ! »

قال : « لا أصدق . لقد كان خارجاً من غرفتي لينظر ما الخبر »

قلت : « صحيح . الحق معك »

قال : « إذن من أين جاءت ؟ »

فصحت به : « وهل أنا أعرف ؟ ألا يكفي فزعنا بالليل حتى تحطم لي رأسي بالنهار ؟ »

فاعتذر ومضى عني

وسعى الوكيل بعد أيام أن يسترضي سيده

والغريب أن قريبي نسي أني وعدته أن أنقذ أخته ، ولو تذكر لعرف من أين جاءت المربى والرقاق ، ولأدرك أن الذي اشتجر معه في الظلام لم يكن قاتلاً متربصاً ، وإنما كان قريبه

ابراهيم عبد القادر المازني

المتة الوثيق العقدة الذى لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم والسواد الأكثر

ولكن هل العلم وقوة المنة ، والتجرد من الوهم هى كل شىء فى الحكم الأدبى ؟ أو بعبارة أخرى ، هل من تتحقق لهم هذه الصفات تتشابه أحكامهم الأدبية ، ولا تتباين آراؤهم الفنية ؟

الحق أن هناك عوامل أخرى تعمل فى تكوين الحكم الأدبى ، وبقدر وجودها كاملة أو منقوصة تكون قوة الأحكام الأدبية وضعفها وهى : —

أولا : الاستعداد الذاتى — فهناك فضائل فى الانسان يصح اعتبارها مواهب فطرية ، كخصب القريحة وصفاء الذهن ودقة النظر ومرونة الطبع . فمن المؤكد أن بعض العقول تستفيد أو يظهر أنها تستفيد فى أيامها الأولى أكثر من غيرها ، كما يظهر أنها أكثر انتباهاً ويقظة ، وأحفظ لما تستفيد من الجزئيات ، وأقدر على تكوين كل منها ، وعلى حفظها متفرقة كما هى ، ثم أقدر على تهيىء أنفسها للاجابة على مطالب الوجود الجديدة والحكم على المسائل المستحدثة ، وآية أن هذه الصفات فطرية لا اكتسابية هو أنها قد تتهيأ للتعلم كما قد تتهيأ للأمى ، وقد يحظى بها الهمل كما قد يحظى بها المثقف ، ولكن لا ننس أن هذا الاستعداد ليس صفة ثابتة كصلابة المعدن مثلاً ، بل يعظم بالمران حتى أنه فى استطاعة صاحب الاستعداد تقوية استعداده الى درجة كبيرة تضؤل بجانبها حاله الأولى

ثانياً : النقل بأوسع معانيه — فقل من يستفيد من شعوره وتفكيره الذاتيين ، ولكن معظم الناس يستفيد خبرته ممن حوله ، وهذا النقل يبتدىء مع الانسان من يوم ميلاده ، حتى إن علماء التربية ذهبوا الى أن الطفل يتعلم عن طريق حاسة اللمس فى أيامه الأولى . ويروى صامول سميلز Samuel Smiles « أن أماً سألت قساً عن الوقت المناسب لتربية طفلها الذى كان عمره حينئذ أربع سنين فأجابها : « لقد فقدت هذه السنين إن كنت لما تبتدئى فى تربيته »

ولكن الواقع أن تربيته قد بدأت بالفعل ، وإن توهمت أمه غير ذلك ، فالطفل يتعلم بالمحاكاة البسيطة ، وهذا التكوين الأولى لخلق الطفل يلازمه طيلة حياته . ومن هنا صح قول ملتون milton « الطفولة عنوان الرجولة كما أن الصبح عنوان النهار » ويقوى هذا النقل ويعظم بالتربية المدرسية والاطلاع على أحوال الأجيال الغابرة ، وتعرف الآداب الماضية والحاضرة

وهذا العامل مع ما سبقه فى تنازع مستمر وتجاذب دائم وهذا التنازع هو الذى يفرق بين الناس ، فمنهم ضعيف الاستعداد الذاتى ، مستسلم لما ينقل لا يرى رأياً جديداً ، ومنهم ناقد لما يختار وقلما يرى رأى غيره ، ولا يراه إلا بعد تدقيق وتمحيص . وعامل النقل ظاهر الأثر فى الحكم الأدبى ، فرأى القارىء فى قصيدة مثلا مرتبط بكيفية معرفته المعانى البرقية المتعددة لكلماتها وتصورها ، وبكيفية ائتلاف هذه المعانى فى ذهنه ، وبالحد الذى تضبط اليه خبرته الذاتية العامة المعنى المركب الذى ألفته هذه المعانى الجزئية . وهكذا فما يأتى فى ذهن القارىء نتيجة مجموعة مبهمة من التأثيرات الخارجية

ثالثاً : سلامة الفكر أو النزاهة — وهذه الصفة هى التى تجعل الحكم محكماً وتربط بين العقول ، أو بعبارة جامعة تجعلنا انسانيين . وأصدق التعاريف لها هو « تقدير كل الاحتمالات الممكنة ، وعدم ترجيح أحدها إلا بمرجح » فأى قصيدة مثلا تقدم نفسها الينا على أنها تحتمل مقاصد كثيرة ، وهذه الاحتمالات ميادين صالحة للمران العقلى ، وقد يؤثر بعضها فى بعض ، وما دامت هذه الاحتمالات تنال نصيباً من عنايتنا فان أحكامنا تكون نسبياً فى مأمن من الزلل ، ونحن حين نفرض كل الاحتمالات الممكنة نكون أكمل فى معنى الانسانية البعيدة عن التحيز منا حين نستبد بفرض واحد بعينه ثم نلتمس له البراهين . ثم الرأى القائم على النزاهة لا يكاد يتسرب اليه الوهن ، لأننا قبل الأخذ به نفند ما عداه من الآراء

رابعاً : فهم صاحب الأثر المنقود — وهذا يكون بتعرف خلقه وما فيه من لين وقسوة وقوة وضعف . فأدب القوة ينتجه أديب قوى ، وأدب الضعف ينتجه أديب ضعيف ، ولا عيب على كل منهما من الناحية الأدبية ، فما عيب من يصدر عنه ما يمثل نفسه ؟ أما أن يطابق الأدب المثل العليا أو لا يطابقها فهذه مرتبة ثانية

والأمة التى تريد أدباً قوياً ، عليها أن تعمل على تكوين أدباء أقوياء ، وإلا كانت كمن يتطلب فى الماء جذوة نار . . . ثم لا بد مع هذا من قراءة أعظم قدر من بيان الأديب المنقود ، حتى يألف الناقد أسلوبه فى التفكير وطريقته فى الأداء

ولكن لسوء الحظ ينسى الكثيرون هذه العوامل فيتوهمون